﴿*وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: 141]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تُعَدُّ هذه الآيةُ واسطةَ العِقْد العَقَديِّ بينَ الرَّدِّ على افتراءاتِ الكافرينَ فيما سبقَ، والتَّمهيدِ لمَا يأتي من تفصيلِ أحوالِ الأنعام؛ فوجهُ اتِّصالِ هذا بما قبلَهُ أنَّ الكفَّارَ لمَّا افتروا على اللّه الكذبَ، وأشركوا معه وحلَّلوا، وحرَّموا، دلَّهُم على وحدانيَّتِهِ بأنَّه خالقُ الأشياءِ، وأنَّه جعلَ هذه الأشياءَ أرزاقًا لهم[1].

حـالُ المنكِرِين والـجـاحِـدِيـن، ونـمـاذِجُ النِّعمِ الّتي تكونُ بها المُـتْـعـةُ دونَ إسرافٍ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَّٰتٍ﴾: أصلُ الجِنِّ: سترُ الشَّيءِ عنِ الحاسَّةِ، والجَنَّةُ: كلُّ بستانٍ أو حديقةٍ ذي شجرٍ تستر بأشجارِها الأرض، وكثافةُ فروعِ شجرها المرفوعة تَجُنُّ؛ أي: تُظِلُّ، وتسترُ مَن يسير[2]، والمقصودُ بها جنَّاتُ الأرضِ بأمارةِ قولِه: ﴿كُلُواْ﴾، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

2) ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾: العَرشُ في الأصل: شيءٌ مُسقَّفٌ، يُستظلُّ به، وجمعُهُ عُرُوشٌ، وهو تفرُّعٌ وانفراشٌ يُمْتَسَكُ مُشتبِكًا في أعلَى، وقيل: عَرَشْتُ الكرمَ، وعَرَّشْتُهُ؛ إذا جعلتُ له كهيئةِ سقفٍ، وقد يُقالُ لذلك: المُعَرَّشُ، قال تعالى: ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾[3].

3) ﴿أُكُلُهُۥ﴾: والأُكُلُ: ثمرُ النَّخلِ والشَّجرِ، وكلُّ ما يُؤكَلُ، فهو

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/99.
(2) الرّاغب، المفردات: (جن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جنن).
(3) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرش).

أُكلٌ، فالأَكلُ بالفتح: المصدرُ، وبالضّمِّ: الشَّيءُ المأكولُ، قالَ تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرّعد: 35]؛ أي: مأكولُها؛ أي: ليسَتْ كثمارِ الدُّنيا وفواكهِها الَّتي تجيءُ وقتًا دونَ وقتٍ، وقولُه: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]؛ أي: ما تُثمرهُ، فيؤكَلُ[1].

4) ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾: "الشِّينُ والباءُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تَشَابُهِ الشَّيءِ وَتَشَاكُلِهِ لونًا وَوَصفًا"[2]. والشَّبهُ: المثلُ، والمماثلةُ من جهة الكيفيَّةِ؛ كاللَّونِ والطَّعمِ، وكالعدالةِ والظُّلمِ. وتشابهَ الشّيئان، واشتبها: أشبهَ كلُّ وَاحِدٍ مِنهُمَا صَاحبَهُ، وفِي التَّنزِيل: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾[3].

5) ﴿حَقَّهُۥ﴾: الحقُّ نقيضُ الباطلِ، وحقَّ الشَّيءُ؛ أي: وَجَبَ، وهو: الصَّوَابُ وَالصَّحِيحُ، والحقيقة: مَا يصيرُ إِلَيهِ حقُّ الأَمرِ[4]، وأُريدَ بالحقِّ ما كانَ يُتصدَّقُ به على المساكينَ يومَ الحصادِ[5].

6) ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾: السِّينُ والرَّاءُ والفاءُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على تَعَدِّي الحَدِّ، ومُجاوزةِ القَدْرِ؛ فالإسرافُ نقيضُ الاقتصادِ، والسَّرَفُ: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فعلٍ يفعلُهُ الإنسانُ، والمُسرفونَ: المُتجاوزونَ الحدَّ في أمورِهم، أو الحقَّ في الأخذِ منَ الشَّيءِ إلى الإهدارِ والإفسادِ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّهُ سبحانَه هو الَّذي خلقَ بساتين مبسوطةً على وجهِ الأرضِ دونَ ساقٍ، ومرفوعةً عليها ذاتَ ساقٍ، وهو الّذي خلقَ النَّخلَ، وخلقَ

مُخاطبةُ عُقولِ المُشركين، لإقرارِ بأنَّ الرَّازقَ المفضالَ، هو الله المتعالِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أكل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شبه).
(4) الخليل، العين: (حق)، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 265 (باب الحقّ).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/72 - 73.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرف).

الزَّرعَ مُختلِفًا ثمرُهُ في الشَّكلِ والطَّعمِ، وهو الّذي خلقَ الزَّيتونَ والرُّمانَ، ورقُهما مُتشابهٌ، وطعمُهما غيرُ مُتشابِهٍ؛ كلوا - أيُّها النّاس - من ثمرِهِ إذا أثمرَ، وأدُّوا زكاتَهُ يومَ حصادِهِ، ولا تتجاوزوا الحدودَ الشَّرعيَّةَ في الأكلِ والإنفاقِ، فاللّهُ لا يحبُّ المُتجاوزينَ لحدودِهِ فيهما، ولا في غيرِهما، بل يبغضُهُ، إنَّ الّذي خلقَ ذلك كلَّه هو الّذي أباحَه لعبادِهِ، فليسَ للمشركينَ تحريمُهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ سَوْقِ (الواوِ) بينَ الاستئنافِ والعطْفِ:

في العطْفِ تذكيرٌ بـمِـنَنِ الـلـه، وتجليةٌ لنِعَمِهِ المتُوالِيةِ

يحتملُ الاستئنافُ أنْ يكونَ بيانيًّا، فينظرُ فيه إلى آيةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: 99]، أو سرديًّا فيكون تعدادًا ضمنيًّا، أو ابتدائيًّا فيكون النَّظرُ إلى الضَّمير المبتدأ في تحقيقِ مقصودِ الكلامِ وغرضِهِ، وعلى أنَّها عاطفةٌ؛ فهي تجليةُ إنعامٍ بعدَ إنعامٍ، ومُوجبٌ للتَّوحيد وإخلاصِ العبادةِ للّه والقيامِ بحقِّ تسبيحِهِ وحمدِهِ بعدَ مُوجِبٍ، ومُقتضاه منَ العبدِ تجديدُ استجابتِهِ للّه وتعديدِها كما في جملةِ الحاجِّ المُهِلِّ: لبَّيك، إذِ التَّثنيةُ مُرادَةٌ في غيرِ نظرٍ إلى أدنى ما تتحقَّقُ به، بل هي تكرُّرُ الاستجابةِ ما بقيَت فيه عينٌ تَطرِفُ، وإن لم تَطْرِفْ.

فالعطفُ تذكيرٌ بمنَّةِ اللّهِ تعالى على النّاسِ بما أنشَأَ لهم في الأرضِ ممَّا ينفَعُهُم، فبعدَ أن بيَّنَ سوءَ تصرُّفِ المُشركينَ فيما مَنَّ به على النَّاسِ كُلِّهم، مع تسفيهِ آرائِهم في تحريمِ بعضِها على أنفسِهم، عَطَفَ عليه المِنَّةَ بذلك استنزالًا بِهِم إلى إدراكِ الحَقِّ والرّجوعِ عنِ الغَيِّ[2].

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 146.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/11.

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسمِ الصَّريحِ إلى الضَّميرِ:

إنشاءُ الجنَّاتِ مَقصورٌ عليه سُبحانَه، دونَ سِواه

الضّميرُ (هو) أداةُ ربطٍ لأجزاءِ النَّصِّ، قامَ مقامَ اللَّفظِ الظَّاهرِ، وأغنى عن تَكرارِهِ، ووصلَ منَّةَ الأنعامِ بمنَّةِ الجنّاتِ، فربطَ آخرَ الكلامِ بأوَّلِهِ بلفظٍ مُوجَزٍ بَليغٍ في هذا المَقامِ، مُفصِحٍ عمَّا وراءَهُ من أسرارٍ، جامعٍ للفوائدِ المُمثّلَةِ بقَصرِ النِّعمِ عليه سبحانَه، وحصرِ المننِ به جلَّ شأنُه.

وتعريفُ الجزأين بالجمعِ بين الضَّميرِ والاسمِ الموصولِ واتِّحادِهما أفادَ تحقيقَ معنى القصرِ وتأكيدَهُ؛ للعنايةِ به بوصفِهِ خبرًا محصورًا سيقَ للمُخاطَبين منَ المُشركين الّذين افتروا على اللّه سفهًا بغير علم؛ لأنَّهم في جحدِهم نعمَهُ، وتعاليهم، وكفرِهم كحالِ مَن يجهلُ قدرةَ اللّهِ تعالى على خلقِ جميعِ الموجوداتِ، والتَّصرُّفِ بها، وتسييرِها أنَّى شاء.

سِرّ مَجيءِ المُسْندِ اسْمًا مَوصولًا ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

التَّعريفُ بالموصوليَّةِ المذكورةِ، يُفيدُ اختصاصَهُ تعالى بإنْشاءِ النِّعمِ الأثيرةِ

وإيثارُ إيرادِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ دونَ (مَنْ) مَهيعٌ من مَهايعِ العظمةِ والجلالِ، وتعريفُ المُسندِ يفيدُ الاختصاصَ، وتعريفُ الطّرفين يفيدُ القصرَ؛ وكلاهما يُؤثِرُ الحصرَ، والحصرُ يقودُ إلى العبوديَّةِ الحقَّةِ، والعبادةِ الخالصةِ، كما في آية ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: 17]، والاختصاصُ يقودُ إلى خوفِ المقامِ، وإلى عدمِ أمنِ التَّغْييرِ، وفيه التَّنبيهُ إلى أنَّ التَّوحيدَ وإخلاصَ العبادةِ فيها حظوظُ تسويةٍ للعبدِ، كما هي حظوظُ تربيةٍ بما فيها من تخليةٍ وتحليةٍ؛ فأمَّا هذه الأخيرةُ فمعروفةٌ، وأمَّا حظوظُ التَّسويةِ فلِمَا فيها من بلوغِ الأشدَّ في الإدراكِ ورهافةِ الحسِّ وصحَّةِ الحكمِ على الأشياءِ، ووضعِ كلِّ شيءٍ مَوضعَهُ، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه...إلخ، وجُمَّاعُهُ إيثارُ اللّهِ وتفضيلُه على كلِّ ما عداه.

التَّخصِيصُ والقصْرُ:

إفرادُ من يُطْعِمُ ولا يُـطْـعَـمُ بالوَحدانيّةِ، من أَماراتِ الاعترافِ بالفضْلِ

يقودُ التَّخصيصُ والقصرُ بطرفٍ خفيٍّ إلى التَّذكيرِ بوحدانيَّةِ اللّه وصمدانيَّتِه؛ إذِ البشرُ المربوبونَ وأحياءُ الخلائقِ الحيوانيَّةِ والإنسيَّةِ والجنِّ، كلٌّ أولئك يأكلُ ليغتذي، وينمو؛ واللّهُ وحدَهُ هو الّذي يُطْعِمُ، ولا يُطْعَمُ، فلزمَ إفرادُهُ بالعبادةِ وإخلاصِ التَّوحيدِ له سبحانَه: وقد مرَّ بأوَّلِ السُّورةِ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: 14 - 16]، وسيأتي في آخرِها: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ﴾ والسُّورةُ من ركائزِ العقيدةِ.

إيثارُ الجُملةِ الاسْميَّةِ هنا على الفعليَّةِ:

نِعمةُ الجنَّاتِ المَعروشاتِ مُحقَّقةٌ دائمةٌ فضْلًا منه تعالى

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ ﴿*وَهُوَ ٱلَّذِيٓ﴾ ثباتَ نعمةِ إنشاءِ الجنَّاتِ المَعروشاتِ ودوامَها، ورسوخَ مَدلولِها، وزادَ من حتميَّةِ تحقُّقِها صوغُ فعلِ الإنشاءِ على هيئةِ الماضي الدَّالِّ على تحقُّقِ الوقوعِ بما لا يحتملُ الشَّكَّ، ولا يقبلُ النِّزاعَ، وذلكم من سعةِ رحمةِ اللّهِ تعالى بعبادِهِ، ومديدِ تفضُّلِهِ؛ بتعاهدِهِ خلقَهُ كلَّ حينٍ.

عِلَّةُ إيثارِ فعْلِ الإنشاءِ دونَ غيرِهِ:

الإنشاءُ تذكيرٌ بنِعَمِ البارِي على خلْقِهِ

في إيثارِ فعلِ الإنشاءِ في مُفتتَحِ الآيةِ دونَ الأفعالِ: (خلق)، (جعل)، (أنبت) حكمةٌ كبيرةٌ من جهةِ أنَّه عَوْدٌ به على الإنسانِ المُتلقِّي السَّامعِ المُمتنِّ عليه بما سبقَ أنْ ذكرَهُ اللّهُ لهُ فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98]؛ ليردَّهُ إلى أن يعتبرَ بإنشاءِ النَّباتِ إلى إنشائِهِ هو نفسُهُ من قبلُ، وإنشاءِ أصولِهِ كلِّها امتدادًا إلى أصلِهِ الأوَّلِ، وإنشاءِ فروعٍ منه، هو لا يملكُ إنشاءَها، وأنَّ ما يرَاهُ من مَراحلِ إنشاءِ النَّباتِ وتكاملِهِ وتناميهِ، حتّى بلوغِهِ مدى

التَّفريخِ، وحدَّ العطاءِ والإثمارِ، وأن يُؤخذَ منه نقيلةٌ وفسيلةٌ وطُعْمٌ للتَّكاثرِ، قد مرَّ هو بِهِ مِن قبلُ في نفسِهِ ومرَّت به زوجُه وآباؤُه وأصولُه، وتمرُّ به فروعُه، والخالقُ العظيمُ الفردُ واحدٌ سبحانه، وهو يفعلُ كلَّ ذلك لخلقِهِ من رحمتِهِ وكرمِهِ، يريهمُ الغايةَ من خلقِهم؛ لينعموا بتوحيدِهِ وتمجيدِهِ، ومشاهدةِ جمالِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ، وآثارِ أسمائِهِ الحسنى الجليلةِ، وصفاتِهِ العُلا الجميلةِ، ويديه المَبسوطتين بالرَّحمةِ والعطاءِ والإنعامِ والإكرامِ، وليدركوا غناه المُطلَقَ، وكمالَ قيُّوميَّتِهِ ووحدانيَّتِهِ، وتفرُّدَهُ في ملكِهِ وملكوتِهِ، وأنَّه ربُّ الرَّحموتِ والجبروتِ، وذو القوَّةِ والقهرِ، وليتحقَّقَ عبادُه بلباسِ الافتقارِ الدَّائمِ إليه، فيلازموا الضَّراعةَ له والذُّلَّ الخاشعَ المُستكينَ بين يديهِ، ويالها من حلاوةٍ ولَذَّةٍ ونعيمٍ مُقيمٍ لا تزاحمُهُ، ولا تسامتُهُ ملاذُّ الدُّنيا كلُّها!.

دَلالةُ إيثارِ فعْلِ الإنشاءِ دونَ ما يُقارِبُهُ في المعنى:

السِّياقُ فيه إشارةٌ إلى مُلاحظةِ تكوينِ المكوّناتِ، في نشأةِ الكائناتِ

وإيثارُهُ دونَ الأفعالِ: (خلق)، (جعل)، (أنبت)، وكلُّها قرآنيَّةٌ فيه أسرارٌ ودُررٌ ومعانٍ كملاحظةِ إنشائِهِ منَ العدم[1]، وتكوينِهِ بمراحلِهِ وأطوارِهِ من مبْتداه إلى امتلائِهِ بالزَّهرِ والنَّوْرِ والثَّمرِ، وطروءِ التَّخليقِ عليه والإكمالِ، كلَّ لحظةٍ بما يدُلُّ على تعاهدِ اللهِ خلقَه دومًا، وهكذا البشرُ الغافلون مَربوبون، ويتقلَّبونَ في عطاءِ الرُّبوبيَّةِ وفيوضاتِ إنعامِها، وكملاحقةِ امتدادِها وانتشارِها، وكَثْرةِ صنوفٍ، واتِّساعِ أشباهٍ على مساحاتٍ فسيحةٍ، وأبعادٍ شاسعةٍ واسعةٍ لا يبلغُ مداها البصرُ، وما أودعَ فيه من قوَّةِ جذوعٍ وبداعةِ فروعٍ وهائلِ امتدادٍ؛ فكلُّ ذلك للإنشاءِ إيحاءاتُه فيه، وإلَّا فكيف ذكرَ: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن: 24] - ملاحَظًا جريانُها - على قراءة ﴿ٱلْمُنشِـَٔاتُ﴾ باسمِ الفاعلِ، كما هو لحمزةَ وأحد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/289.

الوجهَين عن شُعبةَ، وباسم المفعولِ مُلاحَظًا ضخامتُها وارتفاعُها بقرينةِ التَّشبيهِ بالجبالِ الشُّمِّ الرّواسِي.

الدَّلالةُ الصَّوتيَّةُ للفعْلِ (أنشأ)، وأَثَرُها في التّركيبِ:

دِقَّــةُ الإنـشـاءِ وامـــتـــدادُهُ، ووضوحُ أَثَـرِهِ في الخَلْقِ

ومَن يتأمَّلْ جرسَ الفعلِ (أنشأ)، المبتدأ والمنتهي بحرفٍ اختُصَّ بأعمقِ المخارجِ، وهو مجهورٌ، شديدٌ، تعجَّبَ لاجتماعِهما فيه، وهو غيرُ مُقلقَلٍ، حاصرين بينهما حرفَ التَّفشي - الوحيد في الأكيدِ من ذلك - ودلالةُ هذا الفعلِ بتركيبِهِ البنائِيِّ هذا على المفعولاتِ له المذكوراتِ بعدَهُ بما يوحي بدقَّةِ التَّكوينِ وامتدادِهِ وانتشارِهِ وظهورِ تأثيرِهِ على البشرِ، في إعجازٍ يذهلُ تسريحُ الفكْرِ فيهِ إذهالًا مُسْتَغرِقًا يُطَوِّفُ بصاحبِهِ في زواهيهِ ورواييهِ وثَمرِهِ وقائمِ زرعِهِ، وهائمِ ينعِهِ، ولذيذِ طعمتِهِ، وحفيِّ جَناه، وبركةِ حصادِهِ، وما يُناطُ بالمُكلَّفِ المُنعَمِ عليه من حقوقٍ وآدابٍ في ممارساتِهِ المُتعلِّقةِ بعوائدِهِ وتعاملاتِهِ.

سِرُّ إيرادِ اللَّفْظِ ﴿جَنَّتٍ﴾ دونَ لفْظِ ﴿حَدَآئِقَ﴾:

اشتمالُ الجنَّاتِ عـلى الـنَّـخـلِ والعِنَبِ خِلافَ الحدائقِ

الجَنَّة: كلُّ بستانٍ ذي شجرٍ يسترُ بأشجارِهِ الأرضَ[1]، ومن هنا لا تكون الجنَّةُ في كلامِ العربِ إلَّا وفيها نخلٌ وعنبٌ، فإن لم يكنْ فيها ذلك، وكانت ذاتَ شجرٍ؛ فهي حديقةٌ، وليسَت بجنَّةٍ[2]، قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النَّمل: 60]، وقالَ: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [النَّبأ: 32]، ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ [عَبَسَ: 30].

وبينَ الجَنَّاتِ والأعنابِ آصرةٌ قويَّةٌ؛ فالجنَّاتُ هي الأرضُ ذاتُ الأشجارِ المُلتفَّةِ الكثيفةِ الَّتي لا تُرى أرضُها لتكاثفِ أشجارِها، وهذا شأنُ العرائشِ من أشجارِ العنبِ تكونُ جنَّةً ساترةً لأرضِها[3]؛ فحسُنَ اقترانُ الأعنابِ بالجنَّاتِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جن).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (جنن).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2607.

ومن هنا ففي كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المعطوفةِ المُقدَّرةِ وكلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المعطوفِ عليها المذكورةِ، إيحاءاتٌ بلاغيَّةٌ ثرَّةٌ ومعانٍ ثريَّةٌ غنيَّةٌ دسمةٌ فائقةُ الحسنِ فيما تَجِنُّ، وفيما تُجَنُّ به، من ورقٍ مُندَّى وزهرٍ ونَوْرٍ وأكمامٍ وثمارٍ وفروعٍ وأغصانٍ وألوانٍ وروائحَ وطعومٍ، وبُسُطٍ تحتَها من حشائشَ كالسُّندسِ، ومُلْكٍ كبيرٍ جَلَّ مُبْدِعُهُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 24].

بَلاغةُ المجازِ المُرْسَلِ في وصْفِ الجنَّاتِ:

الجنَّاتُ ظَرْفٌ للشَّجرِ الحالِّ بها، وكثافةُ الشَّجرِ وتَشابُكُه هو الجنَّةُ

وفي القدرِ المذكورِ مَجازٌ مُرسَلٌ في وصفِ الجنَّاتِ بمعروشاتٍ وغيرِ مَعروشاتٍ علاقتُه المحليَّة؛ إذ المعروشُ الشَّجرُ الحالُّ في الجَنَّاتِ، والجنَّاتُ ظرفُهُ ومحلُّهُ.

بَلاغةُ إطلاقِ لفْظِ (الجنَّاتِ) على التَّنعُّمِ بها وبزِينَتِها:

جنَّاتُ الدُّنيا أُنموذجٌ دُنيويٌّ لنَعيمِ الآخرةِ

ومن لطيفِ أسلوبِ القرآنِ ثَمَّ، التّنبيهُ بتسميةِ الجنَّاتِ على التّنعُّمِ بزينتِها، والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ في الحياةِ الدُّنيا، وطلبِ مَرضاةِ اللّهِ بطاعتِهِ وشكرِهِ، وتعلُّقِ القلبِ بالتَّطلُّعِ إلى جنَّاتِ الآخرةِ، حيثُ الخلودُ بلا فَناءٍ والنّعيمُ بلا انتهاءٍ، فسَمَّاها ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ لاستدعاءِ ذلك كما في ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: 25].

سِرُّ إعْجازِ القُرآنِ في إطلاقِهِ اسْمَ (الجنَّاتِ) عليها:

في ذكرِ الجنَّاتِ ترغيبٌ وترهيبٌ

الجمعُ بين جناحي الدَّعوةِ إلى اللّهِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فالتَّرغيبُ باستدعاءٍ نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ: 15]، ونحو قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 32].

والتّرهيبُ باستذكارِ ما آلَ إليه أمرُ الجاحدينَ من ذوي الجنَّاتِ

المُعاقبين، كما في آيةِ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البقرة: 266]، وآيةِ: ﴿*وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32 - 44]، وآيةِ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: 17 - 33]، وبآيةِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ﴾ [سبأ: 15 - 19].

فلمَّا ذكرَها مُسمَّاةً ﴿جَنَّٰتٍ﴾ رغَّبَ، ورهَّبَ في آنٍ واحدٍ، وشوَّقَ بذكرِ ما يَفنى، وينفَدُ إلى ما عندَهُ سبحانَهُ وبحمدِهِ ممَّا لا يَفنى ولا يَنفَدُ.

مَغزَى الوصْفِ بلفْظَيْ ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾:

أوردَ الرَّازيُّ في قولِهِ: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أقوالًا: الأوَّل: أنَّ المَعروشاتِ وغيرَ المَعروشاتِ كلاهما الكَرْمُ، فإنَّ بعضَ الأعنابِ يُعَرَّشُ، وبعضَها لا يُعرَّشُ، بل يبقى على وجهِ الأرضِ مُنبسِطًا؛ أي: لا تصلحُ إلَّا مَطروحةً على الأرض، مُثقلَةً بما يحكمُ وصولَها إليها، ومتى ارتفعَت تلفَت، والثّاني: المَعروشاتُ العنبُ الّذي يُجعَلُ لها عُرُوشٌ، وغيرُ المَعروشاتِ: كُلُّ ما يَنبُتُ مُنبسِطًا على وجهِ الأرضِ مثلُ القرعِ والبطّيخِ. والثّالث: المَعروشاتُ ما يَحتاجُ إلى أن يُتَّخذَ له عَريشٌ يُحمَلُ عليه فَيُمسِكُهُ، وهو الكَرْمُ، وما يجري مَجراهُ. وغيرُ المعروشِ: هو القائمُ منَ الشَّجرِ المُستَغنِي باستوائِهِ وذهابِهِ عُلُوًّا لقُوَّةِ ساقِهِ عنِ التّعريشِ. والرَّابع: المَعروشاتُ ما يَحصُلُ في البساتينِ والعُمراناتِ ممّا يغرسُهُ النَّاسُ، واهتمُّوا به فَعَرَّشُوهُ، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ ممّا أنبتَهُ اللّهُ تعالى وحشيًّا في البَراري والجبالِ، فهو غَيرُ مَعرُوشٍ"[1]. وفي الأخير إيذانٌ بالفرقِ بين المأهولِ والوحشيِّ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ من لم يكنْ تحتَ سياسةِ سائسٍ، وتأديبِ مُؤدِّبٍ، ولا ضبطِ ضابطٍ، ينشأُ كما ينشأُ الوحشيُّ، غيرَ مَؤدَّبٍ، كأربابِ البوادي والجبالِ[2]،

مِن مَظاهِرِ إحسانِ البارِي في إنشاءِ هذهِ الجنانِ، تَضَمُّنُها الشَّيءَ وضدَّهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/162 - 163.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/268، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/289.

ومن هنا يتبيَّنُ قصدُ التّعبيرِ بـ﴿جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ وكذلك نفيها؛ للامتنانِ بها ولِمَا للعنبِ من فوائدَ غذائيَّةٍ ودوائيَّةٍ وعلاجيّةٍ، ومنَ الرّفاهيّةِ الَّتي في أكلِهِ والاستمتاع.

سِرُّ إيرادِ الوصْفِ على مَفعولاتٍ دونَ مفعولةٍ:

دَلالـةُ وصْـفِ الـجـنَّـاتِ على كَمَالِ الامتنانِ، وحُـسْـنِـهـا المُتكامِلِ

الجمعُ دقيقٌ في دلالتِهِ على المُمتَنِّ به، ومطابقةِ جمعِ التَّأنيثِ بمماثلِهِ، وصفًا له، وللدَّلالةِ على اكتمالِ حسنِ الجَنَّاتِ، وتكاملِ منافعِها بتمامِ المناسبةِ لِمَا عبَّرَ به عنها.

بَلاغةُ حذْفِ المعْطوفِ في الطِّباقِ:

أغـنَـى ظـهـورُ الجنَّاتِ باسقةً عـن ذكْـرِهـا ثانيةً؛ لِيُورِثَها هيْبَةً

حذفَ المعطوفَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المُتسامِي والمُتنامِي ليصيرَ مُقابلةً، وما فيه منَ المزجِ بينَ الفكرةِ والمُفكِّرِ، إذ لَمَّا كانتِ الجنَّاتُ معروشةً كالعنبِ، وكانَت كرومُها تتدلَّى منها تحتَ ما عُرِشَتْ به، فالعارشُ حاجبٌ، ذكرَها بالاسمِ، أمَّا غيرُ المَعروشةِ فهي مُنطلقةٌ في السَّماءِ غيرُ مُحتَجَبَةٍ بشيءٍ، فأغنى ظهورُهُا باسقةً بأصلِها الثَّابتِ وفروعِها الَّتي في السَّماءِ عن ذكرِهَا كما ذُكِرَت الأولى، واكتُفي منها بالوصفِ ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾؛ ليورثَنا هيبةً من هذا التَّنزيلِ العزيزِ المهابِ الَّذي يضعُ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ دونَ زيادةٍ ولا نقصٍ.

فضْلُ النَّفْيِ بـ ﴿وَغَيۡرَ﴾ على النَّفْيِ بـ (لَيْسَتْ):

في معنَى المغايَرةِ مَزيدُ فضْلٍ

آثرَ النَّفيَ بـ﴿وَغَيۡرَ﴾ في هذا الأسلوبِ الأخَّاذِ الآسرِ؛ لأنَّه لو قال: (وليسَت مَعروشاتٍ) لم يكنْ فيها معنى الغيريَّةِ أو المغايرةِ، ولَتُوُهِّمَ من السِّياقِ أنَّ المَعروشاتِ والَّتي ليسَت مَعروشاتٍ من نوعٍ واحدٍ هو العنب، فكانَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ ﴿وَغَيۡرَ﴾ مُصوِّرًا ومُؤثِّرًا ومُؤطِّرًا.

عِلَّةُ جمْعِ ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ الثَّانيةِ، المُضافةِ إليها ﴿وَغَيۡرَ﴾:

الـجـنَّـاتُ غيرُ المَعروشاتِ، لا قـصْـرَ فيها عن سابِقَتِها

وذلك إذ لم يقُل: (معروشة) بمكانِها، فإنَّه لو فعلَ - وحاشاه - لكانَ قدْ قصَّرَ بها عن أن تبلغَ مدًى بلغته المَعروشاتُ الأولى مِنَ المدى أنواعًا، واتِّساعًا، وطعومًا وألوانًا وآثارًا بالرَّوْحِ والعبقِ، وإبهاجًا

ومسرَّةً، مع أنَّ صفوفَ غيرِ المَعروشاتِ أكثرُ، وأعمارَها أطولُ وأكبرُ، واغتذاءَهَا منَ الشَّمس والرِّيح وطلاقةِ الجوِّ وماءِ السَّمَاء أوفرُ، وتندِّيها بها أغزر، فيا لإعجازِ القرآنِ!

سِرُّ العطْفِ بالواوِ في هذه الجُملِ، على المعطوفِ ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾:

حَشْدُ الأصْنافِ المُنعَمِ بها، في مَصافِّ الامتنانِ، في نَسَقٍ واحدٍ

ينطوي العطفُ بالواو في هذه الجملِ على بَصَرٍ بديعٍ والتفاتٍ رائعٍ إلى حشدِ هذه الأصنافِ المُنعَمِ بها في مصافِّ الامتنانِ في نسقٍ واحدٍ، فكلُّ صنفٍ منها مَليءٌ بالأسرارِ المُحتشِدَةِ فيه وعجائبِ التَّفاصيلِ المُكوِّنة له، والمؤدِّيةِ به إلى أن يفيَ بالغايةِ من إنشائِهِ، ويؤدِّيَ لبني آدمَ مُقتضَى تسخيرِهِ - بمَنِّ خالقِهِ وموجده - وتسييره، فذُكِرت جميعُها مُتعاطفةً بالواو؛ لأنَّ كلًّا منها يدُلُّ على عظمةِ الصَّانعِ المبدعِ، وعلى وحدانيَّتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ وحسنِ تدبيرِهِ وكمالِ قيُّوميَّتِهِ وكريمِ تقديرِهِ، دلالةً واحدةً صريحةً لا مُتأخِّرَ فيها عن مُتقدِّمٍ، فهي مُستَعلِنَةٌ صارخةٌ في البريَّةِ، مُقيمةُ الشَّهادةِ بذلك للّٰه حُجَّةً على الخلق أن لا إله إلّا اللّٰه وحدَهُ لا شريكَ له يرزقُكُم بما خَلَقَ وَذَرَأَ وأَنزَلَ؛ فله أسلموا، وبهِ آمنوا، وعليه، فتوكَّلوا. وفي هذا أيضًا سرٌّ يدُلُّ المربوبَ المخلوقَ على علمِ اللّٰه به، واطِّلاعِهِ على مكنونِهِ، فمِنَ النَّاسِ يقعُ اختلافُ التَّفضيلِ للطُّعومِ من حلوٍ ومُرٍّ وحامضٍ ومالحٍ، وللمذاقِ دورٌ في الإقبالِ على المَوائدِ والإجفالِ عنها، وفي المآكلِ صِبغٌ للآكلين، فلم يكنِ اللّٰهُ ليفرضَ على النَّاسِ كلِّهم مُفَضَّلَ طائفةٍ منهم، فكلُّها نِعَمُهُ وخلْقُهُ، وقبولُهُا مِنْ شكرِها كالثَّناء على واهبِها بها سبحانه، وفي بعض طُرُق الحديث: «واجعلْنا شَاكرينَ لِنِعَمِكَ مُثنِينَ بِها عَلَيكَ قابليها، وأتمَّها علينا»[1] وغيره، ولهذا تراها احتشدَت جميعُها آخذةً أماكنَها في نسقٍ واحدٍ، وهي في أصولِهَا باديةٌ: العنبُ والنَّخلُ والزّرعُ مُكتنِفٌ، والزّيتونُ والرُّمانُ

(1) أبو داود، السّنن، برقم: (969).

على سبيلِ التّمثيلِ لا الحصرِ، وسائرُ ما ذُكِرَ للاغتذاءِ والنَّماءِ والاستقواءِ والشِّفاءِ، وبعضُه جامعٌ إلى ذلك التَّسريةَ والتَّمْرِيةَ والتَّسليةَ والإلهاءَ، فهل بقي عندَ أحدٍ ريبٌ أنَّ في الآيةِ الواحدةِ منَ التَّعليمِ والتَّفهمِ والتَّقويمِ ما لا يقادرُ قدرُهُ، ولا يُسبَرُ غورُهُ، وأنَّ ما نحن فيه من انبهارٍ، وسَلْكِ النَّفسِ والعقلِ طواعيةً في إسارٍ، هو بعَضُ ما دلَّت عليه جملةٌ، بها بضعُ كلماتٍ من بعضِ آيةٍ؛ والقرآنُ كلُّهُ كذلك.

بَلاغةُ تَرتيبِ المُتعاطِفاتِ:

في ترتيبِ الأصنافِ مُراعاةٌ للفائدةِ، والحاجةِ، والرَّغبةِ فيها

وإذا كانَ العطفُ بالواوِ لا يقتضي ترتيبًا إلَّا أنَّ ورودَهُ مُقدَّمًا في الذِّكر له حِكَمٌ جليلةٌ تُلتمسُ، ورتبٌ نبيلةٌ لا تُمسُّ، منها: عمومُ النَّفعِ، ونفعُ العمومِ، والجمعُ بينَ الاغتذاءِ، والالتذاذِ والإتحافِ بالاشتهاءِ، وما هو أدخلُ في طعمِ الحلواءِ، وكلُّ ذلك يستدعي تقديمَ الذِّكرِ، وهو نوعان: مَعروشٌ كالعنب، وغيرُ مَعروشٍ كالنَّخلِ، ويطرفُ به، ويتحفُ، والأوَّلُ العنبُ، والثَّاني النَّخلُ، ولا يُعَمَّرُ طويلًا بحالتِهِ، ومُتحوِّلًا عنها، ويعمَّرُ، والأوَّل العنب، والثَّاني ثمار النَّخلِ، ويكونُ طازجًا ومُدَّخرًا، وهما الزَّبيبُ والتّمرُ بأصليهما وبما آلا إليه، وذلك يوجِّهُ النَّظرَ إلى مَلمَحٍ آخرَ من ملامحِ الإعجازِ البيانيِّ في القرآن العظيم يستهويك حتّى تَطرَبَ وتَعجَبَ، ثمّ تأخُذَ نفسَكَ بمسايرتِهِ، فلا تزالُ بصُحبتِهِ حتّى يأخذَكَ من كلِّ شيءٍ، فلا يأخذكَ شيءٌ عنه، ولا تسلم نفسك للذَّةِ غيرِهِ.

عِلَّةُ ذكْرِ (النَّخلِ) في الآيةِ الكريمةِ:

النَّخلُ ضربٌ منَ الشَّجرِ مُستغنٍ بنفسِهِ عنِ التَّعهُّدِ وتعمُّدِ الإرواءِ وتكبُّدِ الإسقاءِ؛ لأنَّه ينمو في كلِّ أرضٍ، ونفعُهُ عامٌّ تعرفُهُ كلُّ بيئةٍ، ويُغتذَى به على وجهِ الاكتفاءِ والإجزاءِ، فيُقتصَرُ عليه هو والماء، وقد كان النَّبيُّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مع أزواجِهِ أمَّهات المؤمنين،

النَّخلُ رَمزٌ للنَّفعِ، ومَوئلٌ عندَ المَسْغَبةِ، وثروةٌ تُنمّي قُدراتِ الأمّةِ

يقضونَ الشُّهورَ ذوات العددِ، يسردونها سردًا، تمرُّ عليهم، وَلا يوقدُ في بيوتِ النَّبيِّ نارٌ، وما لهم يومذاك طعامٌ إلّا الأسودان: «التَّمرُ والماءُ»[1]، فكان حَريًّا أن يُصدَّرَ في تعظيمِ الإنعامِ فيه والامتنانِ به على بناتِ جنسِهِ غيرِ المعروشاتِ.

نُكتةُ تقديمِ لفْظِ (النَّخلِ) على المعطوفاتِ الواردةِ بعدَها:

المؤمنُ كالنَّخلةِ مُرتفِعٌ، ومُتَرفِّعٌ، ودائمٌ نَفْعُه، ومُؤثِّرٌ وَقْعُه

ثمّ نلمحُ مَلمَحًا إعجازيًّا آخرَ في تقديمِ النَّخلِ قد جاءَ التَّنويهُ به في صحيحِ السُّنَّةِ أنَّ شجرَهُ لا يسقطُ ورقُه، فاستحقَّ أن يُشَبَّهَ به المؤمنُ المُسْلِمُ لدائمِ نفعِهِ وحسنِ وقعِهِ، فعن عبدِ اللّه بن عمر ﷺ أنَّ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال: «إنَّ منَ الشَّجرِ شَجَرةً لا يسقطُ ورقُها، وهي مثلُ المسلم، حدِّثوني ما هي؟» فوقعَ النَّاسُ في شجرِ البادية، ووقعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، قالَ عبدُ اللّه: فاستحيَيتُ، فقالوا: يا رسولَ اللّه، أخبرْنا بها؟ فقالَ رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: «هي النَّخلةُ»، قالَ عبدُ اللّه: فحدّثتُ أبي بما وقعَ في نفسي، فقال: "لأن تكونَ قلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكونَ لي كذا كذا"[2]. ومن ثمَّ فالنَّخلُ أكملُ مَظهَرًا دونَ غيرِهِ منَ الشَّجرِ طول العامِ على اختلافِ الفصولِ، فاستحقَّ التّقديمَ.

عِلَّةُ تقديمِ (الزُّروعِ)، وتأخيرِ (الزَّيتونِ) و(الرُّمانِ):

انْتِصابُ الشَّجرِ، شاهِدٌ على قُدرةِ اللهِ ووَحدانِيَّتِهِ

ونلمحُ مَلمَحًا إعجازيًّا آخرَ، قَلَّ مَن يفطنُ إليه، ولم نرَ مَن تعرَّضَ له، وذلك في قطعِ النَّظيرِ عن نظيرِهِ منَ الشَّجرِ بتقديمِ ذكرِ الزَّرعِ مَعطوفًا على النَّخلِ، وتأخيرِ ذكرِ الزَّيتونِ عنه لوجوهٍ إعجازيَّةٍ مُبهرةٍ كثيرةٍ، منها: الاعتدادُ بالزَّرعِ في المنَّةِ به، ودلالتُهُ على الرَّبوبيَّةِ، وأنَّه ظاهرٌ في جميع ذلك كالشَّجر سواءً، وأنَّ الإعجازَ في الصَّغيرِ كالإعجازِ في الكبيرِ كما في آية: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، برقم: (6459)، ومسلم، الصحيح، برقم: (2972).
(2) البخاريّ، الجامع الصّحيح، برقم: (131)، ومسلم، الصّحيح، برقم: (2811).

لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26] فهذه فوقيَّةٌ وضآلَةٌ وصغرٌ ونزارةٌ وحقارةٌ؛ فلهذا استُدعيَ الزَّرعُ وقُدِّمَ ذكرُهُ مُزاحمًا الشَّجرَ، وحَبُّه مُنافِسًا للثَّمرِ، وكلُّ ما في الثَّمرِ منَ المَصالحِ المنوطةِ به والمناطةِ مَوجودٌ مثله في الحبوبِ، وأيضًا فإن انتصابَ الزَّرعِ شاهد على وحدانيَّةِ اللهِ، وأنَّه سبحانَه الخالقُ كما في الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: 63 - 64]. فكلُّ ذلك ينبتهُ اللهُ، ويخرجُه، ويبلِّغُه أوجَهَ إيراقًا وإثمارًا، ويكون منه الحَبُّ المُكتمِلُ العناصرِ غذاءً وكفايةً. ثمّ إنّ الزَّيتونَ المُؤخَّرَ ذِكرُهُ غذاءٌ إضافيٌّ لا يستقلُّ بالتَّغذيةِ كما يستقلُّ بالاستصباحِ؛ إذ هو ممَّا يُؤتدمُ به، وليؤتدمَ به لا بدَّ له منَ الخبزِ، والخبزُ منَ الحَبِّ بصنوفِهِ من بُرٍّ وشعيرٍ ودُخْنٍ وحِنْطَةٍ وشوفانٍ وغيرِهِ، فقدَّم عليه ما يلزمُ له ليؤتدمَ به، فهل بعد ذلك إعجازٌ حكيمٌ يراعي كلَّ خصيصةٍ، ويقدِّمُ كلَّ ذي أولويَّةٍ في مَوضعِهِ اللَّائقِ له لافتًا النَّظرَ إلى فضيلتِهِ الَّتي أحكمَها الخالقُ الرَّازقُ فيه، المقدِّرُ في الأرض أقواتَها، ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحِجْر: 19 - 21].

دَلالةُ لفْظِ (الزُّروعِ) على فوائدِ غيرِ الإطعام، ومَنافِعِ غيرِ التَّغذيةِ:

الـزّرعُ بألوانِه وأشكالِه، صُنعُ اللهِ الّذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ

إنَّ بعضَ الزَّرعِ ينجمُ منَ الأرضِ، لا ساقَ له، وليس له حبٌّ يُؤكَلُ منه، ولكنَّه مُنطوٍ على فَوائدَ طبيَّةٍ ومنافعَ حياتيَّةٍ، بعضُها للاسترواحِ، وبعضُها لصدِّ الحشراتِ وطردِ الآفاتِ، وبعضُها المجَرَّدُ عن كلِّ هذا ممَّا تغتذيه الحيواناتُ، وغذاءُ الحيوانِ لا يقلُّ أهمِّيَّةً عمَّا يغتذيهِ الإنسانُ عندَ الإنسانِ؛ لأنَّ اغتذاءَ بهيمةِ الأنعامِ يعودُ بالفائدةِ والعائدةِ على الإنسانِ فيما تُخرجُ منَ اللَّبنِ يكونُ منه

السَّمنُ، ويكونُ منه صنوفٌ منَ الأجبانِ والمأكولاتِ الرّاجعةِ إليه، فكلُّ ذلك مُستحِقٌّ تقديمَ الزَّرعِ ومُوجِبٌ له؛ لأنَّ اللّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، ولذكور بهيمةِ الأنعامِ دورٌ لا يخفى في تلك المُخرَجات من بطونِ بهيمةِ الأنعامِ، واغتذاؤها أيضًا مدعاةٌ لسمنِها وكثرةِ الشَّحمِ وامتلاءِ اللَّحمِ بها أو امتلائِها بهما جميعًا، فيُلتذَّ بالاغتذاءِ بها، وتعظُمَ طُعمةً للنَّاسِ، ولذلك جعلَ الشَّارعُ الحكيمُ ذكرَ اسمِ اللّهِ عليها وذكاتَها سببًا لحِلِّها وإباحةِ الأكلِ منها ناضجةً غيرَ نيئةٍ.

بَلاغةُ التَّعقيبِ بالحالِ على أصْنافِ المأكولاتِ:

الأُكُـلُ يَعُـمُّ الأصْنافَ جميعًا

التَّعقيبُ على المذكوراتِ بذكرِ الحالِ المرادِ استحضارُها عندَ التَّفكُّرِ فيها جميعًا، وهو وإن كانَ الزَّرعُ الأقربَ ذِكْرًا إليه إلَّا أنَّه يعمُّها جميعًا بقرينةِ ذكرِ فاعلِه عقبَهُ ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾؛ إذ فاعلُ اسمِ الفاعلِ قَدرٌ مُشترَكٌ في المذكوراتِ المُتقدِّمةِ جميعًا، والأُكُلُ بضمِّ الكافِ - كما هي قراءةُ الجمهورِ أو بسكونِها للحرميَّين نافع المدنيِّ وابن كثير المكّيِّ - اسمُ المأكولِ بمعنى: المفعول؛ أي: (المَأْكُول). "قالَ ابنُ مسعود: وقُرِئَ: ﴿أُكْلُهُۥ﴾ بسكونِ الكافِ؛ أي: ثَمَرُهُ الّذي يُؤكَلُ في الهيئةِ والكَيفيّةِ"[1].

تَوجيهُ اختلافِ الإعرابِ، للفْظِ ﴿مُخْتَلِفًا﴾:

الامْتِنانُ بما يَختصُّ ثمرُه وجَناهُ ببنِي الإنسانِ، وما ينتفعُ به غيرُ الإنسانِ

ذهبَ الإمامُ مكّيُّ بن أبي طالب القَيْسيّ إلى أنَّ: ﴿مُخْتَلِفًا﴾ هنا في الآية حالٌ منَ النَّخلِ، وخالفَه ابنُ عاشور، فذهبَ إلى حاليَّتها للزَّرعِ مُحتجًّا له بأنَّه أقربُ المذكوراتِ[2]، والأنسبُ توجيهُ دلالةِ الحالِ لدخولِ كلِّ ما يُؤكَلُ ممَّا تقدَّمَ للإنسانِ خاصَّةً؛ لأنَّ الامتنانَ عليه وتقديرَ اختلافِ الأكلِ المقصودِ هو ما يكونُ سبيلَ تحصيلِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/191.
(2) مكّيّ القيسّي، مُشكل إعراب القرآن، ص: 146، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ118.

وتمييزِهِ وإدراكِ فروقِهِ من جهتِهِ، فيخرجُ من ذلك مأكولُ الحيوانِ؛ إذ هو غيرُ داخلٍ بداهةً في ذلك، ونعني به: مأكولَ بهيمةِ الأنعامِ منَ الزَّرعِ.

مع أنَّ فيما ذكرَهُ الإمامُ مكّيٌّ وجهًا؛ بأنَّ النَّخلَ أحقُّ بانصرافِ الحالِ إليه منَ الزَّرعِ؛ إذِ الأوَّلُ يكونُ مأكولًا على طبيعتِهِ المُجتَناةِ من أكمامِهِ أو بغيرِ زيادةٍ تُصنَعُ، فلا يُتَكَلَّفُ طبخُهُ ولا إعدادُهُ، وغالبًا لا يكونُ الزَّرعُ كذلكَ بالنِّسبةِ للإنسانِ، فيستقلُّ النَّخلُ بالحكمِ دونَ الزَّرعِ.

هذا أوَّلًا، وثانيًا فلأنَّ النَّخلَ تختصُّ ثمورُهُ الَّتي هي ثمارُهُ وجناهُ ببني الإنسانِ، أمَّا الزَّرعُ فمنه ما يكونُ للبشرِ، ومنه ما يكونُ للدَّوابِّ منَ البهائمِ، فلم يخلصِ الزَّرعُ كلُّه لبني الإنسانِ لينصرفَ الحالُ إليه، أمَّا أن يُقَال: إنَّ المرادَ منه ما يختصُّ ببني الإنسانِ على أنَّ لامَ العُرفِ عهديَّةٌ لا جنسيَّةٌ، ويزكِّي هذا الفهمَ الأمرُ بعدُ بالأكلِ، وهو مُتوجِّهٌ للإنسانِ، فهو وإن بدا وجيهًا لكنّنا لا نراه؛ لأنَّ الآيةَ عامَّةٌ فيما أنشأَ اللّهُ من أشجارٍ وزروعٍ، فكلُّ ما أنشأَ اللّهُ من ذلك مُسْتَدْعًى، ثمّ يكونُ التَّفصيل، وأمَّا الأمرُ في الآيةِ فقد قالَ اللّهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، فعلمَ أنَّه أرادَ الإنسانَ، ولو أرادَ إشراكَ غيرِ الإنسانِ لجاءَ نسقُ الآيةِ، كما نُسِقَت آياتٌ مماثلةٌ في سورة عبسَ، قالَ اللّهُ منها: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: 24 - 32]. والاقتصارُ على ذكرِ اختلافِ الأكلِ اقتصارٌ على التَّنبيهِ بالبعضِ على الكلِّ، إذِ التّفكُّرُ ينفسحُ بحسب الوُسْعِ والتَّحصيلِ والمَلَكَةِ والطَّاقةِ، وليس شيءٌ منه مُنضبِطًا بضوابطِ المصلحةِ والعلمِ مَنهيًّا عنه، بل كلُّه مَأمورٌ به، مُستحسَنٌ من فاعلِهِ، مُثابٌ عليه، فخُصَّ النّصُّ بالتّنبيهِ لِمَا يجتمعونَ عليه من ذلك بحظوظٍ مُتقارِبةٍ، وتُرِكَ ذكرُ ما يتفاوتونَ فيه، أو يكونُ لبعضِهم حظٌّ فيه، ولبعضٍ آخر حرمانٌ منه، وليسَ ما يجتمعونَ عليهِ منهُ إلَّا الأكلَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الأكلِ بالمصدرِ:

واقتضبَ ذكرُهُ بالمصدرِ دونَ إطالةٍ بإيرادِهِ على زنةِ المفعولِ مراعاةً لمقتضى الحالِ؛ إذ إنَّ الاختلافَ بينها ليسَ من كلِّ وجهٍ، وإنَّما نبَّهَ على اختلافِ الأكلِ المُتضمِّنِ اختلافَ

الاخـتـلافُ بـينَ الأكـلِ ليسَ في كلِّ وجْهٍ

الذَّائقَةِ دونَ اللَّونِ والرَّائحةِ لجملةِ معانٍ منها: أنَّ اللَّونَ والرَّائحةَ منَ المُشهِّيات الدَّاعيةِ إلى الأكلِ، فتَدخلُ تَبَعًا، ومنها: أنَّ في الأكل شغلًا ومَلهَاةً لقوَّةِ داعيةِ الجوعِ، واكتظاظِ البطنةِ، فنبَّهَ على ملاحظةِ الاختلافِ والتّنوُّعِ في المَطعومِ الَّذي جعلَ التَّقوى داعيتَه إلى تناولِ الطَّعامِ، لئلَّا ينصرفَ لبُّهُ بالكلِّيَّةِ عنِ الخالقِ، ومنها أنَّ البركةَ في طعامِهِ وتمامِ انتفاعِهِ به إنَّما يكونُ بذكرِ اسمِ اللّٰهِ عليه عندَ تناولِهِ كذكرِ اسمِ اللّٰهِ على بهيمةِ الأنعامِ عندَ ذكاتِها، وكلٌّ لازمٌ مُتعيَّنٌ على المُكلَّفِ لا يُغني بعضُهُ عن بعضٍ، ولأنَّ الأكلَ مَظِنَّةُ الإلهاءِ، ذكَّرَ بالاعتبارِ لمنْعِ الغفلةِ في أثنائه.

إيثارُ ذكْرِ الزَّيتونِ في الآيةِ الكريمةِ:

الزَّيتونُ ثمرٌ ذو نَـفْـعٍ في كـلِّ ما يَخرجُ عنه

ومن لطائفِ كلماتِ الآيةِ كلمةُ الزَّيتونِ الَّذي يُؤكَلُ ثمرًا وزيتًا، فدلَّتِ الكلمةُ بأوَّلِها على زيتِهِ؛ إذ له الصَّدارةُ في الانتفاعِ والفوائدِ، وبجميعِها على ثمرِهِ وشجرِهِ كليهما في آنٍ واحدٍ.

سِرُّ الإعْمامِ دونَ التَّفصيلِ:

الإعـمـامُ تـنـوُّعٌ فـيـه الـرَّحـمـةُ، والـتّـفـضُّـلُ، والقُدرةُ

عُنِيَتِ الآيةُ بذكرِ الأسماءِ، كأمثلةٍ لغيرِ المعروشِ تاركةً تفصيلَ الأنواعِ في الجميعِ، فالنَّخلُ تتجاوزُ أنواعُهُ الآلافَ المؤلَّفةَ دونَ شكٍّ، ولكلِّ نوعٍ طعمٌ مميَّزٌ ولونٌ خاصٌّ وجِرمٌ وحجمٌ وسماتٌ بها يُرْغَبُ، ويُطْلَبُ، وفي كلِّ البقاعِ والأصقاعِ أصنافٌ خاصَّةٌ ببقعتِها ومنطقتِها ليسَت في بقعةٍ غيرِها، فكان إيجازَ اقتصارٍ واختصارٍ واكتفاءٍ وإشارةً؛ كلُّ ذلك معًا في نفسِ الأمرِ، وكلُّ ما ذُكِرَ اسمُه فهذا شأنُه سواء، فهو لونٌ من سماويَّةِ الوحي بل إلهيَّتِهِ، وأنَّه فوقَ طوقِ البشرِ.

إيثارُ ذكْرِ الرُّمَّانِ في هذه الآيةِ الكريمةِ:

الابـتـداءُ بالمُستَحسَنِ، والـخـتـمُ بالمُستَطابِ

الرُّمَّانُ من أعجبِ ما خلقَ اللّٰهُ، ومن أطيبِهِ وأعظمِهِ عائدةً، وأحسنِهِ فائدةً، وأجلِّهِ نعمةً، وأعملِهِ في البدنِ تصحيحًا له، وإقامةً وإبلالًا منَ الأمراضِ والأسقامِ والالتهاباتِ والإنتاناتِ، وللرُّمَّانِ

ذِكرٌ مُعتَبرٌ في تجاربِ الحكماءِ العلاجيَّةِ قديمًا وحديثًا، وإفاداتٌ مَرمُوقةٌ في فوائدِ الأغذيةِ والنَّباتاتِ، وله منافعُ مَشهودةٌ في الطِّبِّ والحكمَةِ، كما أنَّه منَ الفواكهِ المقوِّيةِ لكلِّ قوى البدنِ والأعصابِ، وهو مُسامتٌ للنَّخلِ، وفي الآيةِ حكمةٌ بالغةٌ لاحظَتْ مسامتَتَهُ النَّخلَ الواردة في سورة الرَّحمن، فإن يكن ثمرُ النَّخيلِ مُستحسَنًا أن يُبْدأَ به؛ فإنَّ الرُّمَّانَ مُستطَابٌ الختمُ به، وقد قالَ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرّحمن: 68]، كما قالَ هنا: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

من دلالات التّشابُه وعدم الاشتباه:

التَّشابُهُ يكونُ في الوَرَقِ، والاختلافُ يكونُ في الثَّمَرِ

ومن دلالاتِ التَّشابهِ في قوله سبحانه ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾، وعدمِ الاشتباهِ في قوله سبحانه ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أنَّك إذا نظرْتَ إلى أشجارِ الزَّيتونِ والرُّمَّانِ مُجتمِعَين ألفيتَ تشاكُلًا واضحًا حتَّى تخالَهُما شجرةً واحدةً، فإذا نظرتَ في ثمرتيهما وطعومِهما؛ وجدتَ اختلافًا واضحًا بينَ الشَّكلِ والطَّعمِ؛ فهو مُتشابِهٌ في الورقِ والشَّكلِ، مُختلِفٌ في الطَّعمِ والمَذاقِ[1].

ومن دلالاتِ التَّشابُهِ في الرُّمَّانِ أنَّ شكلَهُ مُتشابِهٌ في المَنظرِ إلَّا أنَّه مُختلِفٌ في طعومِهِ، فبعضٌ منه حلوٌ، وبعضٌ حامضٌ[2]، ومن دلالاتِ التَّشابُهِ في الزّيتونِ أنَّ أشجارَهُ مُتشابِهَةٌ في الشَّكلِ إلَّا أنَّ ثمارَهُ مُتباينَةٌ في اللَّونِ، فبعضُه بلونٍ أخضرَ، وبعضُه بلونٍ أسودَ.

فنفيُ التَّشابُهِ في الجميعِ يكونُ في اللَّونِ والطَّعمِ والفَسادِ وعَدَمِهِ والتَّفكُّهِ والاقتياتِ والدُّهنِ والماءِ إلى غيرِ ذلك مِن أحوالٍ وكَيفيَّاتٍ لا يُحيطُ بها حَقَّ الإحاطةِ إلَّا بارئُها سبحانَه وعزَّ شأنُه[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/578، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/163.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/471، ومكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/290.

تَوجيهُ صِيغةِ اسمِ فاعلٍ في ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾:

كـلُّ شيءٍ خلقَهُ الـلـهُ تـعـالى بحِكْمةٍ مُدبَّرةٍ، وصَنْعةٍ مُقدَّرةٍ

الفاعليَّةُ (التَّشابهُ) وهو تفاعلٌ منَ الجانبين، والتَّثنيةُ غيرُ مرادةِ العددِ، فمهما قلَّبتَ النَّظرَ مُعدِّدًا وجوهَ المقارنةِ بينَ الشَّيءِ وبعضِه المماثلِ تبيَّنَتِ الاختلافاتُ المُنبِئةُ عن أنَّه مَخلوقٌ هكذا بحكمةٍ مُدبَّرةٍ، وعن إرادتِهِ التَّامَّةِ لكلِّ ما هو عليهِ وجميع ما جاءَ فيهِ، فإنَّه إبداعُ الخلَّاقِ العليمِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٨٩﴾ [آل عمران: 189]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: 45] برغم أنَّ التَّشابهَ قائمٌ ومُلْبسٌ، في خارجِ الثّمرةِ وداخلِها: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النَّمل: 88]. ودلالتُهُ على التَّشابهِ قائمةٌ إلّا أنَّها ليسَت من كلِّ وجهٍ، بدليلِ قولِهِ تعالى بعدَ عاطفٍ بالواو ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾.

فائدةُ الواوِ العاطفةِ لفظَ الغيريَّةِ: ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾:

جَـمَـعَـتِ الـواوُ وجْـهَـيِ التَّبايُنِ والتَّغايُرِ

أفادتِ الواو العاطفةُ لفظَ الغيريَّةِ هنا التَّقسيم؛ إذ غيرُ المُتَشابِهِ ليسَ هو عَينَ المُتشابِهِ، وإنَّما هو وجهٌ آخرُ مُغايرٌ، فاجتمعَ الوجهانِ على الشَّيءِ الواحدِ، وافترقَا، فاختصَّ كلٌّ بجزءٍ من أجزائِهِ، وذلك كما هنا.

عِلَّةُ جمْعِ النَّخلِ والزَّرعِ والزَّيتونِ والرُّمانِ:

جـمْـعُ الأَلَـخِّ حـاجـةً عـنـدَ الـنَّـاسِ طَـعـامًا وقُوتًا

جمعَ النَّخلَ والزَّرعَ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُدَّخَرُ للاقتياتِ، ولا يُسرعُ فسادُهُ مع المُفارَقةِ في الشَّكلِ، والاختلافِ في النَّوعِ بالشَّجرِ والحجمِ، والتَّفاوتِ العظيمِ في المقدارِ.

وجمعَ الزَّيتونَ والرُّمانَ؛ لأنَّ الأوَّلَ لا يَفسُدُ بوَجهٍ، والثّاني يُسْرِع فسادُهُ، ويُدَّخَرُ كلٌّ منهُما على غيرِ الهَيئةِ الَّتي يُدَّخَرُ عليها الآخَرُ معَ كونِهما منَ الأشجارِ، وتَقارُبِهما في المِقدَارِ، وتَفاوُتِ ثمرتِهما في الشَّكلِ والقَدرِ وغيرِ ذلك[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/290 - 291.

تَوجِيهُ مُتشابِهِ آيتَيْ سورةِ الأنعام (141)، (99):

تقديمُ ما هو في الإطعامِ أَدْخلُ، وتأخيرُ ما هو في الحَلْواءِ أَمْثلُ

اقترنَ ذكرُ الزَّيتونِ والرُّمانِ في الآيتين: الأولى المُتقدِّمَة برقم[99] في السُّورة، والثَّانية الَّتي معنا هنا، وفي الآيتين جميعًا: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ بتقديمِ الزَّيتونِ على الرُّمانِ؛ لأنَّ الأوَّلَ كفاءٌ والثَّاني هناءٌ، وللأوَّلِ الإشباعُ، وللثَّاني الإمتاعُ، فتقديمُ ما هو في الإطعامِ أدخلُ، وتأخيرُ ما هو في الحلواءِ أمثلُ.

ذِكْـــرُ لـفْـظِ التَّشابُهِ في آيةِ الأكْـلِ مَـظِـنَّـةُ وُقوعِ التَّخالُفِ

جاءَ التَّعقيبُ على الآيةِ الأولى بقولِهِ: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: 99]، فذكرَ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ عندَ الأمرِ بالنَّظرِ، وعدلَ عنه في الآيةِ الثَّانيةِ إلى ما يؤدِّي مثلَ مُؤَدَّاهُ من لفظٍ آخرَ غيره، فقالَ: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾؛ لئلَّا يذكرَ الأكلَ منَ المُشتبهِ الَّذي جاءَ في الحديثِ الشَّريفِ أنَّ الورعَ تَوقيةٌ، وهو حديث: «الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَينَهُمَا أُمُورٌ مُشتَبِهَاتٌ، لَا يَعلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ فَقَدِ استَبرَأَ لِدِينِهِ وعِرضِهِ، ومَن وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرعَى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَن يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ»[1]، فَيُظَنُّ - أن لو ذَكَرَ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في آيةِ الأكلِ - وقوعُ التَّخالفِ بين الوحيينِ كلامِ اللهِ، وكلامِ رسولِهِ، وذلك ما لا سبيلَ إليه أبدًا.

نقول هذا مع أنَّ التَّشابهَ المذكورَ في الآيتين، والاشتباهَ الَّذي في إحداهما، ويمكنُ أن يسري - تسامحًا واعتبارًا بمآلِ اللَّفظتين، وأنَّ جذرَهُما واحدٌ، ومادَّتَهما واحدةٌ - إلى الثَّانيةِ هو في الشَّكلِ والطَّعمِ وأشباهٍ راجعةٍ إلى أصلِ الخَلقِ، لا في الحِلِّ والحُرمةِ، ولكنَّه تنزيهٌ حذَّرَ فيه - احتراسًا - من إيجادِ أصلِ ما يُتَّخذُ شُبهَةً، ولو من غيرِ داعٍ ولا مُقتَضٍ، إلَّا أنَّ اللهَ تعالى لكمالِ رحمانيَّتِهِ وحنانِهِ

(1) البخاريّ، الجامع الصحيح: 52 - 2051، ومسلم، الصّحيح: 1599. (متّفق عليه).

ورأفتِهِ وتقديرِهِ الضَّعفَ الَّذي خلقَ النَّوعَ الإنسانيَّ عليه، لم يَجعلْ وقوعَ أحدٍ من عبادِهِ فيما يُلبِسُ عليه دينَهُ بسبيلٍ منه تعالى؛ إذِ القرآنُ كلُّه كتابُ هدًى للنَّاسِ، وبيِّناتٍ منَ الهدى والفرقانِ، كما جاءَ في آيةِ الصِّيامِ نصًّا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185].

وهذا عكسُ التَّرتيبِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: 99]، فترتيبُ الأقواتِ في هذه الآيةِ على طريقِ التَّدلِّي منَ الأعلى في الاقتياتِ إلى الأدنى فالأدنى، والفرقُ بينهما أنّ الآية: (99) جاءَت في مقامِ سردِ الآياتِ الكونيَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ، وقبلَها آياتٌ في آياتِهِ في العالَمِ العلويِّ، وفي خلقِ الإنسانِ وهو دونَهُ، وعالَمُ النَّباتِ أدنى منهما، فرُوعِيَ التَّدلّي في أنواعِهِ، كما رُوعِيَ فيما بينَهُ وبينَ ما قبلَهُ، والمقامُ في هذه الآيةِ مقامُ ذكرِ الأقواتِ؛ لبيانِ شرعِ مُنشئِهَا في إباحتِهَا، في مقابلةِ ضلالِ المُشركينَ فيما ذكرَ قبلَها منَ التَّحليلِ والتَّحريمِ بأهواءِ الشِّركِ، وهو قولُهُ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآية، فقدَّمَ هنالك الحرثَ على الأنعامِ؛ لأنَّ ضلالَهُم فيه أقلُّ من ضلالِهِم فيها، وجرى هنا على هذا التَّرتيبِ، فذكرَ الحرثَ أوَّلًا لِمَا ذُكِرَ، وتَرَقَّى إلى ذكرِ الأنعامِ لكثرةِ ضلالِهِم فيها، وما يحتاجُ إليه من تفصيلِ القولِ الحقِّ في ذلك، وهو انتقالٌ منَ المُهِمِّ إلى الأهمِّ في المعنى المرادِ، وتأخيرٌ لِمَا اقتضَتِ الحالُ إطالةَ القولِ فيه على الأصلِ، فحَسُنَ التَّرقِّي في ذكرِ أنواعِ الأقواتِ النَّباتيَّةِ تفصيلًا، كما حَسُنَ فيما بينَها بجملتِها وبينَ الأقواتِ الحيوانيَّةِ، ولِمَا ذكَرنا منِ اختلافِ المقامِ في الآيتينِ؛ قالَ في آية: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99] وقالَ هنا: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾[1].

وَجْهُ مَجيءِ فعلِ الأمرِ ﴿كُلُوا۟﴾، على الفصلِ من غيرِ رابطٍ بالفاء:

من وجوهٍ: أوَّلُها: كونُ الأكلِ أمرًا فطريًّا تدعو إليه الحاجةُ والمَسغَبَةُ والذَّائقةُ، وثانيها: كونُهم كانوا يتحكَّمونَ بالتَّحريمِ والتَّحليلِ بالأهواءِ اعتمالًا بأزِّ الشَّياطينِ وزمزماتِ أهلِ الكهنوتِ والعرَّافينَ وسدنةِ الأوثانِ والأصنامِ والمُستقسِمينَ بالأزلامِ على نحو ما أفصحت

(1) رضا، تفسير المنار: 8/117.

الأكلُ أمرٌ فِطْريٌّ تُوجبُهُ الحاجةُ والمَسْغَبَةُ والذَّائقةُ

الآياتُ، ومنها: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: 136] وقولُه سبحانَه: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ الآية، فجاءَ الأمرُ الإلهيُّ العامُّ المرفوعُ يتجاوزُ التَّحريمَ المرقوعَ الَّذي اخترعَهُ الطَّواغيتُ لهم لئلَّا يدخلَ الأكلُ في شيءٍ ممَّا مضَوا عليه في سننِهم الجائرةِ ومَسلكِهم الضَّال.

وثالثها: ليرشدَهُم إلى أوانٍ يطيبُ الأكلُ منه بقرينةِ الظَّرفِ المذكورِ شرطًا لوقتِ ابتداءِ إباحةِ التَّناولِ، فإنَّ الأكلَ قبلَ بُدُوِّ صلاحِ الثَّمرةِ لا يُساغُ، فيلفظُ، فيكونُ تفويتًا على النَّفسِ والآخرين، ويكونُ أشبهَ بإتلافِ المالِ في غيرِ وجهِ مَصلَحةٍ ومَنفعَةٍ، فلذا قالَ: كلُوا من ثمرِهِ إذا أثمرَ بهذه الظَّرفيَّةِ لحدوثِ الفعلِ المعلومِ ببدائِهِ العقول، وإنَّما احتاجُوا إلى أن ينصَّ لهم عليه لمّا أنَّهم حادوا عنِ الفطرةِ، وتنكَّبوا موجباتِها، وما تدلُّ عليه، فانتكسَت فطرتُهم، وارتكسَت إنسانيَّتُهم، وتوحَّشَت آدميَّتُهم حتّى قتلوا أولادَهم سفهًا، وحرَّمُوا طِعمَتَهُم على أزواجِهم عمهًا، فأرادَ اللّهُ أن يردَّهُم إلى ما أودعَ فيهم، فنبَّهَ بمثلِ هذا البيانِ الرَّحيمِ الكريمِ الشّريفِ اللّطيف.

ورابعها: لـمَّا كانَ المَوضِعُ "في مَعرِضِ الامتنانِ وإظهارِ الإحسانِ بما خلقَ لنا قالَ: ﴿كُلُواْ﴾، ودلَّ على أنَّ الرّزقَ أكثرُ من خلقِهِ"[1].

تَوجِيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾:

معنى قراءةِ الضَّمِّ يُفيدُ التَّكثيرَ الدَّالَّ على إنعامِ النَّظَرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلف (ثُمُرِهِ) بضمَّتين، والجمهورُ على الفتحِ[2]، وقراءةُ الجمهورِ على أنَّ (ثَمَر) اسمُ جنسٍ جَمعِيٌّ يقعُ على القليلِ والكثيرِ، أمَّا على قراءةِ حمزةَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/291.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/260.

والكسائيِّ فهو جمعُ (ثَمَرَة) أو جمعُ (ثِمار)[1]، وهذ الجمعُ دالٌّ على الكثرةِ، وجعلَهُ آخرون على أنَّه من بابِ جمعِ الجمعِ (ثَمَرَة - ثِمار - ثُمُر)[2]، وفي الكلِّ هو دالٌّ على الكثرةِ ليناسبَ سعةَ العطاءِ الممثَّلِ بلفظِ الجنَّاتِ، والمعروشاتِ، وغيرِ المعروشاتِ، وتعدُّدِ صنوفِ الأقواتِ، ووصفِها بالمُختلفةِ، والأمرِ بالأكل.

بَلاغةُ الجِناسِ في لفظَيْ (الثّمر):

دفعُ تَوَهُّمِ إرادةِ معنًى مُغايرٍ، والتَّنبيهُ على عظيمِ القُدرةِ

جاءَ بجناسِ الاشتقاقِ في قولِهِ: ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾؛ لأنَّ شيئًا غيرَه لا يقومُ مقامَهُ، ولا يؤدِّي مؤدَّاه فيما لو قالَ: (من نتاجِهِ) مثلًا، فقد يُظنُّ أنَّه الثَّمنُ المُتحصَّلُ من بيعِهِ، وليس ذلك بالمقصودِ، وفي قولِهِ: ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ التَّنبيهُ على عظيمِ القدرةِ، والاتِّصافِ بالوحدانيَّةِ، والصّمدانيَّةِ، وإظهارُ أنَّه مَحضُ رزقٍ منَ اللهِ، لا يَدَ لهم فيه، فلا حقَّ لهم في تحريمِهِ بالأهواءِ، ولإظهارِ رحمتِهِ ونعمتِهِ وحسنِ تدبيرِهِ، وكمالِ تقديرِهِ، وللحُكمِ له بالاستطابةِ، فإنَّه لا يُحِلُّ إلَّا الطَّيِّبَ، ولا يأمرُ بالفحشاءِ.

دَلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿كُلُواْ﴾:

الأمـرُ للنَّدبِ، والاستِحبابِ، أوِ الإلزامِ والإيجابِ

وأعاضَهم عن تحريمِ ما كانوا يُحرِّمُون بأمرِهم أمرَ نَدْبٍ واستحبابٍ أو إلزامٍ وإيجابٍ إلى التَّصدُّقِ منهُ بعدَ ما أَذِنَ لهم أن يأكلوا من غيرِ تحريجٍ عليهم فيهِ؛ ما لم ينووا بالأكلِ الاقتطاعَ والمضارَّةَ بالمُتَصَدَّقِ عليهم، ولم يُحدِّدْ لهم مقاديرَ، ولا كلَّفَهُم بحسبانٍ، ولكن عزمَ عليهم فيه لذوي القُربى والجيرانِ وأبناءِ السَّبيلِ والسَّائلينَ، كلِّ مَن يبدو لهم عوزُه، أو يكون ناميًا إليهم علمهم بحالِهِ واستحقاقِهِ؛ فسمَّاه حقًّا، وعيَّنَ وقتَهُ بقولِهِ: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/226.

(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 264، والواحديّ، البسيط: 8/323.

بيانُ التَّشابُهِ بينَ الفعلَيْن: ﴿كُلُواْ﴾، و﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾:

فـعـلُ الـنَّـظَـرِ يُـناسـبُ سياقَ الاعتبارِ، وفعلُ الأكـلِ يُناسبُ سِياقَ الطُّعْمَةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99] أوردَ الفعلَ ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾، فيما قالَ هنا: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: 141]؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ الأولى سياقُ نظرٍ واعتبارٍ وتبصُّرٍ وتنبيهٍ على ما نصبَ الحقُّ ﷻ منَ الآياتِ والدّلائلِ على وحدانيّتِهِ[1]، أمَّا سياقُ هذه الآيةِ فمبنيٌّ على تعدادِ النِّعمِ بذكرِ أحكامِ المأكولاتِ، فقد تقدَّمَها قولُهُ تعالى: ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: 138]، وجاءَ بعدَها قولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، وهما مَبنيَّان على سياقِ الأكلِ، فكانَ مُناسبًا أن يُعبِّرَ بفعلِ الأكلِ، فجاءَ كلُّ فعلٍ على ما يناسبُهُ ويوائمُهُ.

تَوجيهُ القراءةِ في ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ ومَجيءِ اللّفظِ مُضافًا:

فِي أمْـــرِ زكـــاةِ الـــزُّروعِ سَعةٌ، لِحِينِ تُستَخرَجُ الحبوبُ صَالحةً للتَّداوُلِ

وقد قُرِئَ بلُغَتَيهِ كلتيهما، الأولى: المنبِّئةِ عنِ ابتدائِهِ، وهي بفتحِ الحاءِ: لأبي عمرو ويعقوبَ وابنِ عامر وعاصم، والثّانية: المنبِّئةُ عنِ انتهائِهِ وخُلوصِهِ وإمكانِ الأكلِ منه، وهي بكسرِ الحاءِ لسائرِهم بعدُ: لنافعٍ وأبي جعفر وابنِ كثيرٍ وحمزةَ والكسائيِّ وخلف[2]، والقراءتان تدلَّان بنفسيهما أوَّلًا، وبالإضافةِ ثانيًا أنَّ مضافَهما - وهو يومُهما المضافتان إليه - يعني: منِ ابتداءِ العملِ إلى انتهائِهِ مهما استغرقَ مِن أيَّامٍ شمسيَّةٍ ومُدَدٍ زمنيَّةٍ، وأنَّه غيرُ معدودٍ بساعاتِ النَّهارِ الَّتي تكونُ بمجموعِها يومًا زمنيًّا بنهارِهِ وليلِهِ، بل الأمرُ على الاتِّساعِ لحينِ تُستخرَجُ الحبوبُ صالحةً للتّداولِ، مُعدَّةً ليُسلكَ بها سبيلُ التَّناولِ.

وقد أجادَ ابنُ عاشورٍ رحمَهُ اللّهُ في بيانِ أنَّ الأمرَ على الوجوبِ، وأنَّ تشريعَ الزَّكاةِ ابتدأَ بمكَّةَ لكفالةِ الضَّعفةِ وحدثاءِ العهدِ بالإسلامِ منَ المُستضعَفينَ والفقراءِ، وأنَّ المقاديرَ لم تُبَيَّنْ بعدُ إلَّا في المدينةِ،

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/166.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/266.

وذلك كلامٌ حَسَنٌ لو عَضَّدَتهُ آثارُ غيرِ مَحَلِّ النِّزاعِ، فإنَّ القائلينَ بفرضيةِ الزَّكاةِ بالمدينةِ هم الفقهاءُ كافَّةً.

ولذلك يبقى الأمرُ مُتَّسِعًا، وتُحمَلُ الآيةُ على النَّدبِ بعدَ فرضيَّةِ الزَّكاةِ، وإن كانَت منذ نزلَت قبلَ فرضيَّتِها عزمةً، فالمفسِّرُ اليومَ في حلٍّ مِن تفسيرِها بما كانَت عليه يومَ كانت عزمةً وإيجابًا ليفسِّرَها على ما بقي الحكمُ عليه، واستقرَّ وبمفادِ الآيةِ بعدَ فرضيةِ الزَّكاةِ وإلى آخرِ الزَّمانِ.

دَلالةُ النَّهْيِ عنِ الإسرافِ:

الاعتدالُ والتَّوسُّطُ مَقصدُ الشَّارعِ، ومَطلبُه المُستدْعِي المحامِدَ

نهى اللَّهُ عبادَهُ عنِ السَّرفِ نهيًا مُباشرًا صريحًا يُشعرُ بأنَّ له الملكَ والملكوتَ والعزَّةَ والجبروتَ والكبرياءَ والعظمةَ، وبأنَّ له الألوهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ، وكمالَ الأسماءِ والصِّفاتِ، وحُسناها وعُلَاها، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرُّوم: 26]، فهذا الأمرُ الكريمُ بضدِّ ما دلَّ النَّهيُ عليه، أَمْرٌ بالاعتدالِ والتَّوسُّطِ والقصدِ، ولا يُفهَمُ منه عكسُ مرادِ الشَّارعِ أنَّ النَّهيَ عن أحدِ الطَّرفين مُقتَضٍ الانحيازَ للآخرِ، والطَّرفان هما الإسرافُ والإقتارُ، والوسطُ بينهما هو السَّخاءُ المحمودُ والجودُ، ولاسيَّما أنَّ للشَّارعِ توضيحًا في مَظانِّه لهذا المَسلَكِ الأخلاقيِّ يُنبِئُ عن اختيارِ الشَّارعِ فيه، وذلك قولُهُ جلَّ وعزَّ سبحانَه وبحمدِه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: 67]، وقولُهُ ﷻ وتقدَّسَت أسماؤُه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29].

وقد عجَّلَ الإخبارَ بقطعِ المعذرةِ لتجنُّبِ العملِ بالهوى، وإذًا فالنَّهيُ عنِ الإسرافِ هنا مُلتَفَتٌ فيه إلى تنبيهِهم بقطعِ ذرائعِهم، كيلا يُقالَ: قصدتُ الخيرَ بمزيدِ العطاءِ حتَّى أجحف بالمال، أو يُقال: لم أقصدْ فوقعَ دونَ قصدٍ، فتضمَّنَ نهيُهم عنه تعجيلَ الإخبارِ بقطعِ

المعذرةِ ليكونوا على بصيرةٍ، فإنَّ عملَ المرءِ بما يعلمُ أنَّه خطأٌ هوًى، والهوى آفةُ العفافِ، وإنّ تركَهُ العملَ بما يعلمُ أنَّه صوابٌ تهاونٌ، والتَّهاونُ آفةُ الدِّين، وإنّ إقدامَهُ على ما لا يدري: أصوابٌ هو أم خطأٌ جماحٌ؟ والجماحُ آفةُ العقلِ، وكلُّ ذلك مُعرَّفٌ مُقترنٌ بالخيبةِ، حيث لا ينفعُ النَّدمُ، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ.

بَلاغةُ التَّوكيدِ في جُملةِ الفاصلةِ:

في التَّوكيدِ حافِزٌ عنِ الانتهاءِ عمَّا نهَى اللهُ تعالى عنه

ذكرتِ الآيةُ الحافزَ الأكبرَ على الارعواءِ عنِ المنهيِّ عنه، وامتثالِ النَّهي، فجاءَت بـ (إنَّ) التَّوكيديَّةِ للزومِها تتميمًا للمقامِ هنا؛ لأنَّها سدَّت مَسَدَّ التَّعليلِ؛ أمَّا التَّعليلُ فلأنَّ اللهَ أباحَ لهم الأكلَ قبلُ من ثمرِهِ إذا أثمرَ، وبإيتاءِ حقِّهِ يومَ حصادِهِ إذْ ظفرَ به، ونهاهُم عن مجاوزةِ الحدِّ، والتَّعدِّي فيه بالإسرافِ؛ إذ لا يُعْذَرُ؛ فإنِ امتثلَ ذلكم المُنعَم عليه بالجنَّاتِ المعروشاتِ فيما أنارتِ الآيةُ بصيرتَه ليجعلَ لها أعمدةً وسقفًا يتدلَّى فيه عناقيدها تجويدًا لنتاجِها وبهجةً لناظرِها، وبغيرِ المعروشاتِ، فَإِلَامَ يتطلَّعُ مثله، وقد جاءَتهُ الدُّنيا طائعةً، فامتثلَ أمرَ اللهِ فيها، وأنفقَ منها، وهل ثمَّ مُحفِّزٌ أعلى من أن يكونَ محبوبًا للّه تعالى؟ اللَّهمَّ لا.

دَلالةُ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ منَ الآيةِ الكريمةِ:

مَرجِعُ الأعمالِ إلى اللهِ باعثٌ على الإخلاص

فمن ثَمَّ جاءَ التَّعليلُ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ هكذا بالضَّميرِ الرَّاجعِ إلى اللهِ تعالى، حيثُ كانَ العملُ لأجلِهِ سبحانَهُ خالصًا، وكان ذلك مَطويَّ فؤادِهِ، وخبيئةَ صدرِهِ، فكُوفِئَ بالظَّفرِ ببغيتِهِ من محبَّةِ اللهِ له.

بَلاغةُ العُدولِ عنِ الاسمِ الظَّاهرِ إلى الضَّميرِ:

عدلَ إلى المُضمَرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لئلَّا يَستغرقَ العاملُ المُخاطَبُ النَّظرَ إلى الجلالِ في الاسمِ، فإنَّه الغالبُ على النَّاظرِ والمُتأمِّلِ، والعاملُ استغراقًا يُفوِّتُ عليه حظوظَ طمأنينتِهِ، وراحةَ ضميرِهِ بالنَّظرِ إلى ما فيه منَ الجمالِ، وأنَّ رحمتَهُ تَغلِبُ غضبَهُ، وأنَّه لا أحدَ أحبُّ إليه

العذرُ منه جلَّ شأنُه، فمن ذلك أرسلَ الرُّسلَ، وأنزلَ الكُتبَ، أو يتجاوزُ به ما ينبغي من ملاحظةِ الكمالِ في الاسمِ الأعظمِ، الَّذي يقتضي متابعةَ التَّرقِّي فوقَ ما كان قَسَمَ له بالنَّظرِ إلى الجلالِ من خوفِ مقامِ ربِّهِ ومقاومةِ التَّدنّي.

رحـمـةُ الـلـهِ سبقَتْ غضبَهُ، ولا أَحـدَ أحـبُّ إليه العُذرُ منه جلَّ شأنُه

دَلالةُ جُملةِ الفاصلةِ المنفيَّةِ:

ولأنَّ المقصودَ الأعظمَ التَّركيزُ على سرِّ النَّهي عنِ الإسرافِ، وإن كان في تحقيقِ أعلى ما تبلغُهُ الهمَّةُ منَ الامتثالِ لإيتاءِ الحقِّ، وتداعي المُستحقِّينَ وتناديهم ممَّا قد يفوِّتُ على المتصدِّقِ النَّظرَ إلى حقِّ نفسِهِ ومَن يعولُ، وهو الأمرُ الَّذي يلقيه في مهاوي الحاجةِ تلك الَّتي أضلَّتهُم ظلماتُها، وأطبقَت عليهم غواشيها حتَّى قتلوا أولادَهُم، وظلموا أنفسَهُم، وانتهى بهم الأمرُ إلى الخسرانِ العظيمِ.

في الـتَّـعـبـيرِ بالنَّفْيِ تحقيقٌ لأعلَى ما تَبلغُهُ الـهـمَّـةُ مِـنَ الامْتِثالِ

وسرُّ النَّهي عنِ الإسرافِ هو في خبر (إنَّ) الآتي بعدَ جملةٍ فعليَّةٍ مَنفيَّةٍ بـ (لا) في قولِ المولى سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

سِرُّ إيثارِ النَّفْيِ على الإثباتِ في جُملةِ الخبرِ:

آثرَ النَّفيَ على الإثباتِ، ولم يقُل: (إنَّه يحبُّ المُقتصِدينَ) أو (المُعتدِلين) أو (المُستجيبين) إلى غيرِ ذلك من مثلِه، لمَا تقدَّمَ، إذِ المُتقدِّمُ نهيٌ، والمخالفةُ في النَّهي تتحقَّقُ بتجاوزِهِ دونَ امتثالٍ، فكانَ الإخبارُ بأنَّ جزاءَهُ الحَجبُ والحرمانُ، أوقعَ وأسمعَ، وأوفقَ وأليقَ، فلذا قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ﴾، وكان ذلك أبلغَ في الإيلامِ والتَّنديمِ؛ لمَا يفيدُهُ أنَّ حبَّ اللهِ ديمومٌ مُتجدِّدٌ يحدثُ كلَّ آنٍ لمَن استحقَّ محبَّةَ اللهِ، وأتى بما جَعَلَهُ اللهُ سببًا لنوالِهَا، فكانَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ لاشكَّ أبلغَ.

مُنتهَى الخُسرانِ حِرمانُ حُبِّ اللهِ سُبحانَهُ

عِلَّةُ جمْعِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

وفي جمعِ المُسرفينَ جمعُ السَّلامةِ لمذكَّرٍ قدحٌ زائدٌ فيهم، ونيْلٌ بليغٌ منهم، وكأنَّ الآيةَ تقولُ لهم: ما أغنى عنكم جمعُكُم، فأين كانَت

الجمْعُ الَّذي لا نفعَ فيه مَذمومٌ

قلوبُكُم أو ذهبَت عقولُكُم ؟ وقد اشتدَّت بكم غفلتُكُم، وتناهى بكُم تعدِّيكُم ومجاوزتُكُمُ الحدَّ، حتّى فوَّتَت عليكُم أعظمَ مَأمولٍ وأكرمَ مَسؤولٍ هي محبَّة اللّه تعالى، وياله مِن فواتٍ!

وَجْهُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

مِـن رحـمـةِ اللـهِ بـعـبـادِهِ تـخـصـيـصُ الـحُـكْـمِ، بمَن داوَمَ على اقْترافِ الذَّنْبِ

إنَّ ذكرَ اسمَ الفاعلِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ هنا فيه إلماحٌ إلى العدلِ الإلهيِّ والرَّحمةِ التّامَّةِ منَ اللّهِ لعبادِهِ، ذلك أنَّ تعليقَ الحُكمِ على مُشتقٍّ، كما يُشعِرُ أنَّ العلَّةَ تكمنُ فيما منه الاشتقاقُ، وذلكم الإسرافُ، فإنَّ الصّيغةَ الدَّالَّةَ عليه المعبِّرةَ عنه فيها اختصاصُ الحُكمِ بمَن داومَ على اقترافِ ذنبِهِ حتّى ملاقاةِ ربِّهِ، وتلكم المداومةُ الَّتي لا توبةَ معها من حوبةٍ، ولا أوبَ بعدَها من عيبٍ، هي المُدخِلةُ صاحبَها في أهلِ النُّذُرِ، فضلًا عن دلالةِ الاستقبالِ الَّتي يتمحَّضُ لها اسمُ الفاعلِ.

دَلالةُ لامِ التَّعريفِ في لفْظةِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

من كَمُلَ إسرافُهُ أهـلٌ لـلبُغْضِ والبُعْدِ منَ اللهِ جلَّ في عُلاه

إنَّ دلالةَ لامِ التَّعريفِ الجنسيَّةِ في كلمةِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تلقي بظلالِهَا على معنى الكمالِ والاستغراقِ في الوصفِ، فمَن كَمُلَ إسرافُهُ، فأحاطَ به من كلِّ وجهٍ، فليسَ هو في شيءٍ إلَّا المُسرِفُ، وماتَ على ذلك لم يُراجِعْ، ولم يَرجِعْ؛ فذلكم المُشرِكُ الَّذي لا حظَّ له في محبَّةِ اللّهِ، وهو أهلُ عداوتِهِ وبغضائِهِ، وكلَّما انحسرَ هذا الإسرافُ كان حظُّهُ بحسب ما تحَقَّقَ له، أو انحسرَ عنه.

بَلاغةُ الجِناسِ الاشتقاقِيِّ، في الآيةِ الكريمةِ:

الاقـتِـصـارُ على المـــادَّةِ نفسِها أوسـعُ في دائـرةِ البلاغِ

في قولِهِ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، ومن حسنِهِ وعلوِّ قدرِهِ وارتفاعِ قيمتِهِ في الإقناعِ أن عيَّنَ المنهيَّ عنه بكلمةٍ، ثمَّ لم يجاوزْهُ إلى غيرِهِ في بيانِها؛ لئلَّا يدخلَ العقلُ واسطةً في ربطِ الكلامِ، وذلك مُستملَحٌ فيما وردَ فيه لنُكتةٍ تُفصَّلُ في محلِّها، وما لم يَرِدْ فيه، فيُوقَفُ عندَهُ؛ لأنَّ الاقتصارَ على المادَّةِ نفسِها أوسعُ في دائرةِ البلاغِ؛ لأنَّه للعامَّةِ كما هو للخاصَّةِ، وأبعدُ عنِ

التَّأويلِ الَّذي قد يُختلَفُ عليه، وأَوقَفُ بالمُخاطَبِ عندَ النَّصِّ، فلا يتجاوزُهُ إلى لوازمِهِ.

بَلاغةُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، في الآيةِ الكريمةِ:

إتمامُ الحُجَّةِ بالاستيعابِ، وقطعُ العُذْرِ بالإحاطةِ، مُنتهَى البيَانِ

في الفاصلةِ ردُّ العَجُزِ على آخرِ ما انتهى إليه الكلامُ في الصَّدرِ، فردَّ قولَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ على قولِهِ سبحانَه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾؛ ليكونَ أتمَّ للحجَّةِ، وأقطعَ للمعذرةِ، وأسرعَ في الإنهاءِ بالحكمِ المُنتهَى إليه دونَ تطلُّعٍ إلى مزيدِ بيانٍ، ولاسيَّما مع غايةِ الفصاحةِ وقوَّةِ الدّلالةِ وعظمِ الاستيعابِ وإحاطةِ الخطابِ بموضوعِهِ دونَ أن ينشبَ عليه خصامٌ، وهل وراءَ ذلك من إحكامٍ أو مُلْتَمَسٍ من مَرَامٍ؟

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ و﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾:

التَّبذيرُ مُختَصٌّ بالمالِ، والإسرافُ عامٌّ في كلِّ ما يَتصرّفُ فيه الإنسانُ

سرُّ العدولِ عندَ جعلِ النَّهْيِ مُتَوَجِّهًا إلى التَّبذيرِ عوضًا عنِ الإسرافِ الَّذي جاءَ النَّهْيُ عنه مع حقيقةِ أنَّ كلًّا منهما مَذمومٌ طبْعًا وشرْعًا. وتكونُ مفارقةُ الإسرافِ للتَّبذيرِ في أمرين: أوَّلهما: أنَّ التَّبذيرَ له اختصاصٌ بالمالِ، أمَّا الإسرافُ فلا اختصاصَ له به، بل يكون في كلِّ شيءٍ، ومن ذلك القتلُ، وقضاءُ الشَّهوةِ، والكفرُ باللهِ، والإخلالُ بأيِّ حقٍّ في مُعتقَدٍ، أو عبارةٍ أو سلوكٍ أو خُلقٍ؛ إذ كلُّ مجاوزةٍ حدَّ الاعتدالِ مُدخِلَةٌ صاحبَها في حدِّ الإسرافِ.

والثَّاني: منها: أنَّ التَّبذيرَ لا يلزمُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بآخرينَ، في حين أنَّ الإسرافَ لا بدَّ له من مُتعلَّقٍ، ولذا كانَ التَّبذيرُ نَثْرَ الشَّيءِ وتفريقَهُ، على حين كانَ الإسرافُ تعدِّيَ الحدِّ، والإغفالَ أيضًا للشَّيء.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»